المبحث الأول

محددات أولية لفلسفة الثقافة

محددت أولية لفلسفة الثقافة

(1)

1 - ماهية الثقافة :

1 – أ : الثقافة هى الإطار النظرى لمعتقدات الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه وهى كذلك ما يبدو ماثلاً فى سلوكهم الأخلاقى والدينى والاجتماعى والاقتصادى. إذ لا ينفصل النظر عن العمل، أو بعبارة أخرى لا ينفصل القول عن الفعل فيما يتعلق بإدراكنا لطبيعة ولمعنى الثقافة لدى فرد ما فى مجتمع ما. وحتى إذا ما انفصل القول عن الفعل، أو تناقض النظر مع العمل فإن هذه تكون سمة ثقافية من سمات ذلك الفرد أو ذلك المجتمع الذى ينتمى إليه.

1 – ب: الثقافة إذن هى ما يشكل الوجدان الفردى أو الوجدان الجماعى لمجتمع ما وهى ما يشكل الدافعية لسلوكهم على نحو معين. وهى فى ذات الوقت التى تشكل ما يمكن أن نطلق عليه الضمير الذاتى للفرد أو للمجتمع الذى ينتمى إليه. وهذا الوجدان وذلك الضمير هما ما يوجهان بوصلة السلوك للفرد أو المجتمع، وهما ما به يحاسب الفرد أو المجتمع نفسه، وهما ما به يقيم الفرد أو المجتمع الأعمال والأفعال، ويقارن بين هذه الأفعال الذاتية وبين أفعال الآخرين فى ضوء منظومة القيم الحاكمة التى يؤمن بها .

1 – جـ : إن لكل ثقافة تاريخها ووعيها التاريخى المستقل، ويتحدد جوهر هذه الثقافة أو تلك تبعًا لعمقها التاريخى وتبعًا لقدرة الفرد أو الشعب المنتج

لهذه الثقافة فى الدفاع عنها والتمسك بها وقت الشدائد والمحن والأزمات. وبقدر ما فى هذه الثقافة من قيم إيجابية فاعلة بقدر ما تكون قادرة على تجديد ذاتيتها بتفاعلها مع الثقافات الأخرى بحيث لا تستطيع أى ثقافة غازية أو مسيطرة محوها أو نسخ شخصيتها الذاتية، بقدر ما يجد أفرادها أنفسهم فخورين بها ومتمسكين بعناصرها الجوهرية ومدافعين عن عاداتهم وتقاليدهم التى تشكلت كنواتج لتلك الثقافة التى تعمقت لديهم وتمكنت منهم لأنها صمدت فى وجه التحديات وانتصرت على الأزمات والغزوات ، وخرجت منها قوية قادرة على التجاوز بمزيد من الفاعلية، وبمزيد من الإبداع لعناصر جديدة للتفوق والسيادة .

1 – د: إن العمق التاريخى لثقافة ما يعد فى اعتقادنا دليلاً على أصالتها وعلى صمودها وعلى قدرتها على التجدد وعلى قدرة أبنائها على التفاعل الإيجابى مع الثقافات الأخرى، وعلى قدراتهم على الإبداع ومحاسبة النفس والنظر إلى المستقبل والتخطيط له بوعى وقدرة على الاستفادة من ماضى ثقافتهم وحاضرهم فى رسم معالم جديدة لمستقبلها .

1 – هـ: إن العمق التاريخى لثقافة ما يعد فى نظرنا دليلاً على أنها ثقافة منفتحة تقبل الحوار مع الثقافات الأخرى من منطلق «التكافؤ الحضارى» بين أبناء الأمم المختلفة؛ فلا فرق بين ثقافة وأخرى إلا بما تتضمنه كل ثقافة من عناصر إيجابية قادرة على ابتكار آليات وقيم جديدة تدفع أصحابها إلى التقدم باطراد نحو تحقيق أكبر قدر من الأمان والاستقرار والرفاهية والسعادة للإنسان .

إن الثقافة المنفتحة على الثقافات الأخرى دون تعال أو دون غرور هى الثقافة القابلة للتجدد والقابلة للاستمرار بعكس الثقافة المتعصبة التى ينظر أصحابها إلى أنفسهم على أنهم الأفضل والأعظم والأعلى قدرة وقوة، فإنها تعد ثقافة جامدة جاحدة لما أخذته بالتأكيد من عناصر من الثقافات الأخرى. ومن ثم

فهى ثقافة مؤهلة لأن تنتحر ذاتيًا؛ إذ لم توجد بعد الثقافة القادرة على أن تظل جامدة بعناصر ثابتة لا تتغير!! فمآل عناصرها الثابتة إلى الجمود والتحجر ومن ثم الموت .

1 - و : إن أى ثقافة إنما هى الوجه البارز للحضارة التى تنتمى إليها. فالثقافة هى ما يمكن أن نطلق عليه الوجه الإعلامى لحضارة ما. فإن أردت أن تعرف عناصر حضارة شعب ما فانظر فى الثقافة السائدة بين أفراده. فالثقافة هى واجهة الحضارة، وهى الدلالة على مدى التقدم الذى أحرزه أبناء هذه الحضارة أو على مدى التخلف الذى يعانون منه .

ولا أعنى بالتقدم أو بالتخلف هنا، التقدم والتخلف المادى أو الاقتصادى، فليس الاقتصاد هو المعيار الوحيد لقياس التقدم الحضارى أو التخلف الحضارى، فربما يكون أفقر شعب على وجه الأرض أكثر شعوب العالم تحضرًا ورقيًا فى المبادئ الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى يؤمن بها. وربما يكون هو المُعلم الذى ينبغى أن يتعلم منه أكثر شعوب الأرض تقدمًا تقنيًا واقتصاديًا!

(2)

2 - خصائص الثقافة المتحضرة :

2 – أ : إن الثقافة المتحضرة هى الثقافة التى يسود بين أفرادها القيم الأخلاقية الرفيعة؛ قيم الحب والوفاء بالعهود والمواثيق، قيم الأمانة والكرم والشجاعة والالتزام والترابط الأسرى والاجتماعى .

2 – ب: إن الثقافة المتحضرة هى الثقافة التى يؤمن أفرادها بصورة دينية محددة حول الكون وخلق العالم والعلاقة بين الإنسان والله . وهى الثقافة التى تنظر إلى المستقبل بعين الاطمئنان والثقة وليس بعين القلق والاضطراب والخوف من المجهول .

2 – جـ: إنها الثقافة التى يوازن أفرادها بين المطالب المادية – الدنيوية وبين المطالب المعنوية – الروحية . ويعيشون حياة أخلاقية واجتماعية سوية لا تطرف فيها ولا شذوذ. إن الإنسان فيها يدرك أنه ليس مجرد جسد ثائر مطالب بممارسة كل اللذائذ والشهوات، بل هو نفس وعقل قادر على أن يتحكم فى تلك الشهوات وهذه الانفعالات فيحد منها ويوظفها لصالح حياة سوية متوازنة لا شطط فيها ولا إفراط فى الجرى وراء لذاتها الحسية. إنها الثقافة التى ينجح الإنسان فيها فى تلبية مطالب الجسد وتلبية مطالب الروح باعتدال وتوازن بدون إفراط أو تفريط .

2 – د: إن الثقافة المتحضرة هى الثقافة التى يؤمن أفرادها دون ضجيج ودون افتعال بالتوازن بين مطالب الفرد ومطالب المجتمع. فلا تكون ثقافة فردية أنانية تقوم على إعلاء شأن مطالب الفرد، فينغمس الأفراد فيها فى تلبية مطالبهم المادية – الأنانية الطموحة إلى ما لا نهاية دون مراعاة لمصالح

ورغبات ومطالب الآخرين! بل تكون ثقافة يتصرف الفرد فيها وهو يشعر أنه إنما خلق ليخدم غيره كما يطلب من غيره أن يخدمه . ثقافة يدرك الفرد فيها أنه لم يخلق فى هذه الحياة ليعيش وحده وأنه غير قادر مطلقاً على أن يلبى مطالبه الذاتية بنفسه المنفردة وبقدراته المحدودة، بل خلق ليعيش بين آخرين مختلفى الفطر والمواهب بحيث يلبى كل واحد منهم مطالب غيره كما يسعى لتلبية مطالبه عبرهم وعبر ما يقدمونه من نواتج أعمالهم. وعلى ذلك فالثقافة المتحضرة هى التى يؤمن الجميع فيها بأنهم إنما يعيشون فى مجتمع ينبغى أن تتضافر جهود أفراده فى خلق البيئة الصالحة للسعادة المشتركة .

2 – هـ: إنها الثقافة التى يتمتع أفرادها بإيجابية وفاعلية نحو الإبداع والابتكار فيحاربون ميل النفس إلى الكسل والخمول، وميلها إلى الارتكان على إنجازات الماضى والارتياح إلى ما حققه السابقون فى الزمن الماضى، إن حرب الذات وجهاد النفس إنما يكون بتحويل وجهتها ونشاطها نحو التفكير فى المستقبل وفى ضرورة أن تترك بصمتها الذاتية فيه. ولا يمكن لإنسان فرد مبدع أن يركن إلى ما أنتجه الآخرون وإلى ما أبدعه السابقون عليه!! فهو يريد أن يضيف إلى ما قدمه السابقون عليه ، وهو يسعى إلى تحقيق المزيد من الإنجازات السعيدة لنفسه وللبشرية فى أى مجال من مجالات الحياة .

2 – و: إن الثقافة المتحضرة هى الثقافة التى يسعى المجتمع فى ظلها إلى تحقيق العدالة بمعناها الشامل والواسع، ذلك المعنى الذى يبدأ بتحقيق العدالة داخل الفرد نفسه بالمعنى الأفلاطونى، وإلى تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل المجتمع بتحقيق المساواة بين البشر فى الأنصبة والحقوق والواجبات ودون تمييز بين إنسان وآخر أيًا كان نوع هذا التمييز.

فالتمييز الوحيد بين إنسان وآخر هو ما يحققه الفرد بنفسه لنفسه من

خلال قدراته الإبداعية المتميزة وقدرته اللا محدودة على العمل الجاد والاستفادة من كل دقيقة يحياها على هذه الأرض. إن هذا التميز ليس معناه التعالى على الآخرين أو التكبر عليهم أو الاستهانة بقدراتهم والسخرية منهم، بل إن التميز الحقيقى إذا ما حققه الفرد المبدع ينبغى أن يتوافق ويتلازم مع قدرته على التواضع للآخرين واحترام قدراتهم والحرص على الاستفادة منهم وإفادتهم بأكبر قدر ممكن من التجرد والصبر وتحمل المسئولية الاجتماعية .

2 - ع: إن الثقافة المتحضرة هى التى لا تضع أى قيود أمام أفرادها فيكونوا دائمًا شاعرين بأنهم أحرار متساوون فى الحقوق والواجبات. فلا قيد على حركتهم فى وطنهم ، ولا سلطة تقهرهم وتقف حائلاً أمام إعلان عقيدتهم أو رأيهم أو نظرياتهم علمية كانت أو أدبية أو فنية. فحياة البشر الحرة هى الضامن الحقيقى للشعور بالسعادة، وهى الدلالة الجوهرية على إنسانية الإنسان. وهى الدافع الأعظم للإبداع والابتكار والتجديد. وهى الملهم الذى يلهمهم كل جديد ومبتكر مما يساعدهم على إحراز المزيد من التقدم نحو مستقبل أفضل لهم وللبشرية جميعًا .

2 - غ: إن الثقافة المتحضرة هى التى يؤمن أفرادها بأنهم ليسوا جديرين بصنع السعادة والحياة الأفضل لأنفسهم فقط بل يصنعون كل ما يصنعونه لتحقيق السعادة والحياة الأفضل لأبناء وطنهم وللبشرية جميعًا فى ذات الوقت. إنهم يؤمنون بأن السعادة البشرية لا تكتمل إلا إذا امتلأت بها أرجاء الأرض جميعًا. وأن إحساس أى إنسان فى أى بقعة من الأرض بالألم أو بالجوع أو بالعطش أو بأى شىء يسبب الألم أو الحزن إنما ينبغى أن ينغص عليه حياته ويدفعه دفعًا لنجدته وللتضحية من أجله .

إن الثقافة المتحضرة هى الثقافة التى يشعر أصحابها بأن مشاركة الآخرين من أبناء الثقافات والأمم والحضارات الأخرى أفراحهم وأحزانهم وآلامهم ضرورة يفرضها على الجميع أنهم يعيشون على أرض واحدة وتظلهم سماء واحدة ويتمتعون بشمس واحدة، وبضوء قمر واحد.

(3)

3 - آليات الثقافة المتحضرة :

3 – أ : التفكير العلمى فى حل ما يواجه أبناء هذه الثقافة المتحضرة من مشكلات يعد الآلية التى يستخدمونها تلقائيًا وبدون ادعاء أو تعال على أى مشكلة. فكل مشكلة مهما ضؤل حجمها وقل تأثيرها يمكن أن يترتب عليها إذا لم تواجه بالأسلوب العلمى فى تحليل جزئياتها وحلها حلاً جذريًا ومواجهتها مواجهة حاسمة، يمكن أن تشكل مع ما يتراكم معها وحولها من مشكلات جزئية أخرى عائقًا يعوق تحضر المجتمع وتمدينه ، وعائقًا أمام سعادة الأفراد وقيدًا على حريتهم فى العمل والإبداع. إن مواجهة المشكلات بطرق علمية فى التفكير وبأسلوب علمى فى الحل هو الفيصل بين أبناء حضارة ناضجة واعية وبين أبناء حضارة خاملة تأخذ بالعواطف والانفعالات سبيلاً للنظر فى المشكلات فتكون النتيجة الغوص فى مشكلات أكثر تعقيدًا والإبحار عكس التيار الذى ينبغى أن نوجهه ونستفيد منه فى الحل المباشر لأى مشكلة مهما كانت النتائج السلبية على فرد هنا أو فرد هناك .

إن الأسلوب العلمى فى مواجهة المشكلات وفى تحليلها وحلها تجده لدى الشعوب المتحضرة مغروسًا فى طبيعتهم وكأنه فطرة فيهم رغم أنه بلا شك يعد سلوكًا مكتسبًا يكتسبه الأفراد منذ نعومة أظفارهم فى مراحل التربية والتعليم بمختلف وسائلها وأشكالها. ولذلك فهم يتعودون على ممارسته دون خشية نتائجه ودون النظر فى عواقبه عليهم، لأنهم يعتبرون أنه الأسلوب الأمثل فى حل المشكلات وهو وإن جنى على مصلحة أنانية لفرد ما فى لحظة ما فربما يكون

فى مصلحته على المدى البعيد. فضلاً عن أنه الأسلوب الأمثل لعلاج المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعلمية ككل. وهو الأكثر تعبيرًا عن مصالح الجميع في مجتمع يشعر فيه الجميع بالحرية وعدم التعصب وعدم التمييز، ويؤمن فيه الجميع بالتساوى أمام القانون .

3 – ب : حرية العقيدة وحرية التفكير من الآليات المهمة فى أى ثقافة متحضرة، فليس ممكنًا أن نكون متحضرين إذا لم نكن نؤمن بأن للجميع نفس الحريات التى نتمنى أن نتمتع بها وأن نمارسها. فكما أن كل فرد يرى ضرورة أن يكون حرًا فيما يعتقد، حرًا فى ممارسة التفكير فى أى لون من ألوان المعارف والعلوم ، فكذلك ينبغى أن يؤمن فى ذات الوقت بأحقية الآخرين فى الشعور بنفس القدر من الحرية . وأبناء الثقافة المحضرة يؤمنون بضرورة الحرية للجميع ويدافع كل منهم عن حرية الآخر كما يدافع عن حريته. ويأسى حينما يجد أى قيد يمارس ضد هذا الآخر.

إن مجتمعنا يؤمن أفراده بقدر متساو للحرية بمختلف صورها وأشكالها يتمتع بها الجميع لهو المجتمع المتحضر حقًا . إذ لا يقف أى فرد عائقًا أمام حريات الآخرين، ولا يسعى لوضع أى قيد على حريتهم وعلى ممارستهم لهذه الحرية . إن المجتمع المتحضر هو الذى يمارس ثقافة الحرية المسئولة التى مفادها أننى حر طالما أن حريتى لا يترتب عليها أى إيذاء للآخرين ، ولا يترتب عليها أى ضرر يلحق بهم .

ولا شك أن حرية التفكير تعد إحدى ركائز المجتمع المبدع لأنه لا إبداع فردى ولا جماعى إلا فى ظل تمتع الجميع بالقدر اللازم من حرية التفكير والإبداع . وقد يتعرض المرء للخطأ وقد يخطئ فى الفهم أو فى تقدير العواقب ولكنه سرعان ما سيعود إلى الطريق السليم إذا ما أرشده الآخرون إليه. وإذا ما اقتنع بحجج الآخرين ضده. لكنه لن يفعل ذلك بسهولة إذا ما واجهنا أفكاره الخاطئة واجتهاداته غير الصائبة بالقهر أو

بتوقيع العقوبات الجسدية أو المعنوية عليه . إن المرء لم يخلق ليعاقبه الآخرون وإنما ليستمع إليه الآخرون . وكل منا مطالب فى المجتمع المتحضر بأن يستمع إلى اجتهادات الآخر وإلى إبداعاته كما يطالب هو نفسه هذا الآخر بأن يستمع إليه وأن يقدر اجتهاداته وإبداعاته!!

3 - جـ: الحوار الإيجابى البناء يعد أيضًا من ضمن الآليات المهمة فى أى ثقافة متحضرة لأنه بدون الحوار سينزوى الفرد وينعزل عن الآخرين. وتنعدم فائدته لهم كما تنعدم إمكانية استفادتهم منه. فالحوار ليس لمجرد الكلام أو «الرغى» وإنما هو الأداة الفاعلة فى المشاركة الإيجابية لبناء مجتمع متقدم متطور يتشارك فيه الجميع من أجل تحقيق السعادة والرفاهية والمعرفة للجميع .

والحوار البناء هنا هو ذلك الحوار الذى يشارك فيه عدة أطراف على قدم المساواة فى درجة العلم ودرجة المعرفة . أو على الأقل هو الحوار الذى يشارك فيه الأطراف وكل منهم يشعر أن ما سيقوله - أيًا كانت درجة معرفته وأيًا كانت الطبقة التى ينتمى إليها - سيحقق المزيد من الوضوح فى الرؤية وسيقرب الجميع من الوصول إلى الحقيقة المرجوة حول الموضوع المطروح للنقاش الذى يتحاورون حوله. إن الحوار البناء ليس معناه أن نتكلم لمجرد الكلام أو لمجرد إثبات ذات المتحدث وإثبات قدرته على استخدام الألفاظ الرنانة أو العبارات الفخمة البليغة، بل هو الحوار الذى يستخدم فيه الألفاظ ذات الدلالة المباشرة . وذات المعنى الواضح الذى يضيف الجديد إلى ما قيل وليس لمجرد تكرار ما قيل بصورة أخرى أو بألفاظ مرادفة!!

إن الحوار البناء ببساطة هو الحوار الذى يستخدم الأسلوب العلمى فى التفكير وهو الذى يستخدم أصحابه الألفاظ ذات الدلالة الواقعية الواضحة التى لا لبس فيها ولا غموض. إنه الحوار الذى لا نتحدث فيه إلا إذا كنا نشعر - على حد تعبير بتاح حوتب الفيلسوف المصرى القديم - أننا سنحل المعضلات .

3 – د: إن الحوار البناء فى الثقافة المتحضرة قد يستخدم فيه آلية «النقد»، نقد آراء الآخرين ليس بغرض تجريحهم أو النيل منهم أو التشكيك في قدراتهم وكفاءتهم وإنما الغرض منه الوصول إلى الحقيقة من طريق مختلف عن الطريق الذى طرحه الآخر ، أو الوصول إليها من طريق أقرب وأفضل من الطريق الذى طرحه الآخر .

إن الثقافة المتحضرة تقبل آلية النقد، لأن أفرادها يؤمنون بأنهم إنما خلقوا بفطر متباينة ومواهب مختلفة ومن ثم بعقول متفاوتة و قدرات تحليلية متعددة ومن ثم فكل منهم يعى أنه إن نجح فى إبداء الرأى الصواب أو الصحيح فى مشكلة ما هو أقدر على حلها ، فإنه ليس من الضرورى أن يكون رأيه هو «الصواب» فى «كل» ما يطرح من مشكلات . ومن ثم فهو يقبل الرأى الأرجح والأفضل حتى لو لم يكن هو صاحبه . ويقبل أن ينتقده الآخرون فيما يبديه من آراء غير صائبة أو مبتورة . إن الرأى والرأى الآخر وبينهما النقد ضرورة من ضرورات الثقافة المتحضرة . ومن الضرورى للإنسان المثقف المتحضر أن يعى ذلك لأنه يعى أنه إنما خلق فردًا كما خلق الآخرون أفرادًا، وعقولنا مختلفة ومن ثم فوجهات نظرنا أيضًا يمكن أن تختلف حول أى موضوع اللهم إلا إن كان الأمر يتعلق بحقيقة علمية لا تقبل الشك أو الجدل .

3 – هـ: ثنائية العقل والوجدان فى اعتقادى من آليات الثقافة المتحضرة. وليس معنى الثنائية الإنفصام أو الإزدواجية فى المعايير القيمية أو خلافه . بل معناها أنه على الإنسان أن يعيش حياة تلبى مطالب عقله كما تلبى مطالب وجدانه وآلية الحياة العلمية – التقنية هى العقل وإبداعاته باستخدام الطريقة العلمية فى التفكير التى أشرنا إليها آنفًا، وآلية الحياة الروحية هى القلب أو الوجدان وتلك الحياة الروحية قد يقصد بها الشعور الدينى أو الاستمتاع بالفنون والآداب المختلفة وأداة هذا الشعور الروحى هى الوجدان أو القلب. ولا شك أنه كما قال باسكال أن للقلب منطقًا هيهات للعقل أن يفهمه. والإنسان عقل وقلب كما هو روح وجسد، والإنسان السوى فى الثقافة المتحضرة السوية يعيش حياته بالمستويين معًا دون انفصام

ودون تداخل. وإن كنا نقول اليوم عن الثقافة الغربية إنها ثقافة البُعد الواحد وإنها ثقافة عرجاء لأنها تسير على قدم واحدة هى «العقل - العلم»، فإننا نقول عن ثقافات أخرى عديدة إنها ثقافات وجدانية غير علمية. وفى اعتقادى أن الثقافة المتكاملة المتحضرة هى الثقافة التى يستخدم أفرادها الأداتين معًا فى المعرفة والمتعة. فالفرد فيها يفكر فى حياته العملية والعلمية بعقله مستخدمًا كل آليات التفكير الاستدلالى العلمى. وهو فى حياته الروحية يلبى مطالب نفسه وقلبه بالاستمتاع الوجدانى بتذوق الفنون الرقيقة والآداب الراقية . ولا تعارض بين هذا وذاك بل بهما تكتمل إنسانية الإنسان وتنمو قدراته الإبداعية وتتحقق سعادته المتوازنة دون إفراط أو تفريط.

3 - و: سيادة واحترام القانون أيضًا من أهم آليات الثقافة المتحضرة، فالمجتمع الإنسانى يقوم فى الأساس على اتفاق مكتوب بين أفراده فى أى دولة من الدول ، وهذا الاتفاق المكتوب هو القانون أو الدستور. وبقدر ما يحترم الناس ما اتفقوا عليه وما أقروه فى بنود هذا الدستور بقدر ما يكون مجتمعهم متحضرًا يستطيع أفراده أن يطمئنوا إلى مستقبلهم الآمن فى ظل سيادة القانون واحترام تطبيقه من الجميع. وبقدر ما يفقد القانون احترامه وهيبته فى نفوس من وضعوه واتفقوا على إقراه واحترامه، بقدر ما يتحول المجتمع المدنى إلى غابة يباح للكبير فيها أن يأكل الصغير، وللغنى فيها أن «يدهس» الفقير. وتضيع هيبة الدولة ويتصرف كل فرد من الأفراد مستعينًا بقدراته الخاصة ومستنفرًا لكل إمكاناته الذاتية ليحمى نفسه ويحمى إنجازاته ويحافظ على حياته ضاربًا عرض الحائط بكل تلك القوانين وبكل تلك القيم التى تعبر عنها هذه القوانين!! وقد صدق سقراط فيلسوف اليونان الشهير حينما قال «أتتصورون مدينة لا يحترم أهلها القانون؟! ألا تتدك هذه المدينة من أساسها؟!» .

إن التحضر المدنى أساسه سيادة قانون عادل يشعر الجميع تحت مظلته

بأنهم متساوون فى الحقوق والواجبات ، ومتساوون فى الخضوع له أيًا كان موقعهم السلطوى - التنفيذى وأيًا كانت الطبقة التى ينتمون إليها .

وليس مجتمعًا متحضرًا ، ذلك المجتمع الذى يعتدى فيه الكبير على الصغير مستندًا على ما يملكه من مال أو سلطة . وليس مجتمعًا متحضرًا ذلك المجتمع الذى تسوده الفوضى بدلاً من النظام نتيجة عدم تطبيق القانون وعدم احترامه على القوى قبل الضعيف، وعلى الرئيس قبل المرؤوس ، وعلى الوزير قبل الحقير!

إن ثقافة التحضر إذن هى ثقافة يؤمن أفرادها إيمانًا قاطعًا بأن الأداة الحقيقية لسيادة قيم المجتمع الذى ينتمون إليه إنما هى «قانون عادل» يحترمه الجميع ويطبق على الجميع بدون استثناء، وبدون أى اعتبار للعواطف أو الإنفعالات، وبدون أى نظر لشخصية أو لمنصب الذى خالف القانون مهما كانت ضآلة المخالفة التى ارتكبها .

إن الثقافة المتحضرة إذن هى الثقافة التى يعتبر قادة المجتمع فيها أنفسهم قدوة تحتذى فى احترام القانون وفى عدم مخالفته أيًا كان السبب وأيًا كان الدافع.

إن هؤلاء القادة سواء كانوا من أهل السياسة أو من أهل الجيش أو من أهل الشرطة أو من أهل الفكر والفن .. إلخ هم الذين يعون جيدًا أن صلاح حال مجتمعهم لن يكون إلا بأن يكونوا هم القدوة فى الإذعان للقانون وفى احترام مواده وفى السهر على تطبيقها ومراعاة دقة ذلك التطبيق على أنفسهم قبل أن يكون على غيرهم !

وفى اعتقادى الشخصى أن العلامة الفارقة بين مجتمع متحضر وبين مجتمع متخلف تكمن فى احترام أهل المجتمع الأول للقانون سواء كان مكتوبًا وضعيًا كما فى المجتمات المتمدينة أو كان عبارة عن عادات وتقاليد مرعية وشفوية متفق عليها كما فى المجتمعات البدائية. فاحترام القانون هو ما يميز بحق بين مجتمع متحضر ومجتمع متخلف . وهو الذى يكشف عن هوية أفراده الثقافية. فاحترام القانون والحرص على سيادته على الجميع حكامًا ومحكومين هو المرآة التى تعكس وجه التحضر ومداه لدى أى شعب من الشعوب.

(4)

4 - بنية الثقافة المتحضرة :

4 – أ : إن الثقافة المتحضرة ذات بنية داخلية ديناميكية قابلة للتجدد وللتفاعل مع الثقافات الأخرى. وهى بنية ذات عناصر أصيلة ثابتة لا تتغير وإن استفادت من عناصر الثقافات الأخرى واستلهمت بعض عناصرها الإيجابية فى تجديد شبابها وفى إعادة التوازن إلى عناصرها التى خبت جذوتها أو التى لم تعد تتلاءم مع أى عصر من العصور المستحدثة التى تعيشها .

4 – ب: إن الثقافة المتحضرة ذات بُعدين ، بُعد أصيل أسسه أصحابها ولم يشاركهم فيه الآخرون ، بُعد قابل للتأثر بثقافات الآخرين الوافدة أو الأجنبية أو الغازية. سمها ما شئت! فهى ثقافة تحافظ على جوهرها الأصيل وعلى نقائه من أى شوائب. وفى ذات الوقت تقبل التحاور مع الثقافات الأخرى على قدم المساواة وتقبل الالتقاء معها فى مواضع بعينها دون تضحية بأصالتها. إنها الثقافة ذات البنية الأصيلة – التفاعلية؛ فهى بأصيلها تضمن الاستمرار والبقاء وهى بتفاعلها تجدد شبابها لتكون قوية فى استمرارها وقادرة على العطاء الإيجابى للثقافات الأخرى وخاصة الجديدة منها . فهى ثقافة تعطى بقدر ما تأخذ وتشارك بقدر ما تستلهم أو تستعير من عناصر الثقافات الجديدة .

4 – جـ: إن الثقافة المتحضرة ذات بنية متوازنة ، فهى تعبير عن إنجازات الفرد وطموحه وإبداعاته وهى تعبير عن رغبات الجماعة وطموحاتهم وإبداعاتهم . وبنيتها المتوازنة تراعى ضمان تدفق إبداعات الفرد فى ضوء أهداف عامة يسعى إلى تحقيقها المجتمع ككل. وهى بنية ذات قيم

أخلاقية واجتماعية واقتصادية تحقق مصالح جميع أفرادها وفئاتها حسب معيار العدالة المتفق عليه وخاصة إذا كان هذا المعيار متفق فى جوهره وتفاصيله مع الطبيعة البشرية الأصيلة ولا يضادها.

4 – د: إن بنية الثقافة المتحضرة تقوم على إيمان أفرادها بمبادئ عامة وقوانين عامة ذات مضامين أخلاقية واقتصادية وسياسية وعلمية ثابتة . وفى ذات الوقت يؤمنون بأن لكل منهم حرية الإبداع والتجديد دون التعدى على هذه المبادئ والقواعد والقوانين العامة الثابتة . وبمعنى آخر فبنية الثقافة المتحضرة تقوم على التلاؤم بين المطلق والنسبى، بين الثابت والمتغير ، بين الجوهرى والعرضى، بين الكلى الجمعى وبين الجزئى الفردى. فالفرد فى ظلها يؤمن بقيم الجماعة وقوانينها الثابتة ويخضع لها ويحترمها ، فى ذات الوقت الذى يملك فيه حرية الحركة والإبداع من أجل تطوير هذه القيم والمبادئ والقواعد الثابتة ذاتها . وذلك يتم بصورة تلقائية هادئة غير صارمة . فالتجديد فى الجزئيات سيقود فى النهاية إلى التأثير فى الكلى. والتركيز على الجديد والتطوير فيما يقبل الجميع تجديده وتطويره من عناصر الثقافة المتغيرة سيقود حتمًا إلى تجديد العناصر الثابتة ذاتها من خلال الاجتهاد فى تطويعها لقبول التجدد الاجتماعى أو العلمى أو أى ظروف مستجدة يعيشها أبناء هذه الثقافة .

4 – هـ: إن بنية الثقافة المتحضرة ، بنية واحدة وإن تعددت عناصرها، بنية ذات ظاهر متغير متجدد متنوع رغم باطنها الواحد الأصيل. إنها بنية تقبل الجدل بين الواحد والكثير، بين الأصيل والجديد، بين الوافد والموروث، بين الأنا والآخر. وقبولها لهذا الجدل لا يعنى مطلقًا أنها مستعدة للقفز على ثوابتها أو للتنازل عن جوهرها، إنها بقبولها الجدل تحافظ على الثابت من خلال الحوار مع المتغير، تحافظ على الجوهر من خلال تغذيته بالأعراض، تحافظ على الأصيل والموروث عن طريقة غربلة ما فيه باستخدام مناهج جديدة قد تكون وافدة من ثقافات أخرى.

إن البنية الأساسية للثقافة المتحضرة ينبغى أن تظل بنية حية وليست جامدة. وحياتها تتجدد بقبولها الجدل والحوار مع الآخر ومع الوافد ومع الجديد باستمرار .

إن بنية الثقافة الحية لا تكون حياتها إلا بالتغذى، والتغذى لا يمكن أن يكون من خلال اجترار ما سبق التغذى عليه والنمو به ، وإنما من خلال التغذى على عناصر جديدة وهضمها وتحويلها إلى عناصر شبيهة بعناصر الذات الثقافية.